

مقدمة الطبعة العربية

التاريخ علم حي وواحة غضة تنفيا في ظلها العلوم اجتماعية كانت أم سياسية أم طبيعية الخ . والتاريخ واجبه الحضارة الانسانية ، فلا عجب من ثم ان استولى على قلوب هواة المعرفة وغدت له المنزلة الرفيعة عند الطالب والعالم وجمهرة الشعب . وقد اهتم مؤلفو الغرب الاهتمام الكلي لتبيان مراحل تطور الشعوب ورقبها وربط نتائجها بأسبابها ، فكانت من ثم بحاثهم واقعية ومنطقية استلهموا فيها الآثار من رسم ونقش وبناء الخ والاستنتاج المنطقي اذ العاديات بمقد ذاتها مادة لا حياة فيها ولا تسلسل ، يحيا العقل وينسقا ويفسرها فتتطرق اذ ذاك لتعلمنا بما ابقاه السلف تراثا قيما للخلف . ولا يعرف هذا التطور هوادة أو نهاية اذ تميز سنة الرقي بالانسان من حسن الى أحسن ويبنى بنو آدم التاريخ لبنة لبنة ، ولن يتم هذا التطور الحضاري الا مع آخر حي عاقل .

وما أفدح خطأ من يعتبر التاريخ سلسلة حوادث وسجلا لأسماء تنتثر هنا وهناك في الزمان والمكان اذ التاريخ كما سبق القول علم له أساليبه ومبادئه وفلسفته التي أوجد لمحتها وسداها العربي الخالد ابن خلدون . وليست الحضارة - مادة التاريخ - ثمرة جهود فرد او شعب او مجموعة امم ، بل هي صنع الانسان في مختلف عصوره القديمة والحديثة والمستقبلية ، يتضافر ويتكافل لخلقها مع أخيه الانسان للسير مرحلة مرحلة والانتقال من حسن الى أحسن . وقد تولى أمة اهتمامها لناحية حضارية دون الأخرى وتسهم من ثم على قدر طاقتها في تشييد صرح هذه الحضارة الانسانية العالمية التي ينعم بها الجميع على تفاوت تبعاً للمؤهلات والظروف . فلا فضل والحالة هذه لشعب على آخر اذ لا حياة ولا استقرار ولا استمرار للجهد الانساني الكبير ان لم يعضده الافراد في أي قطر وجدوا وفي أي وقت عاشوا . وهكذا تظهر بوضوح كلي تلك الصفة الاجتماعية - الاشتراكية ... التي تربط الانسان بأخيه الانسان مهما اختلف اللون وتميز المرق وشجعت المسافات . لذا ما أوهى قول بعضهم « الحضارة الشرقية » أو « الحضارة الغربية » اذ الحضارة الانسانية للانسان ونتيجة جهد الانسان وفي خدمة الانسان !

والبعث في تاريخ الحضارة - وان تجزأت اقسامها دون ان تتصادم ! - هو نسبياً حديث

العهد ، اذ كثيراً ما كان يحصر المؤلفون عنايتهم بدرس حضارة شعهم أو قطرهم دون استقرار حضارة الغير والغوص عن جوهرها ومعالمها مهما بلغت شأراً في الرقي والتقدم . ولكن أخذ المؤرخون في القرنين التاسع عشر والعشرين بتعاليم ابن خلدون فأولوا عنايتهم المجاري الحضارية والثقافية عند مختلف الامم مهما اختلف الزمان والمكان فكونوا من أبحاثهم والحالة هذه مادة موحدة « تاريخ الحضارات » وان تميزت المراحل واختلفت الحلقات .

وقد عثرنا على موسوعات عدة في اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية والايطالية تشرح بأسباب منطق هذه الحضارة الانسانية الجماعية ومادتها ، مؤلفة من شتاتها وحدة تاذ وثروق وتفيد . ولا يسعنا مفاضلة هذه على تلك اذ لكل منها ميزات وخصائص . ولكننا مع هذا توقفنا عند هذه الموسوعة الكبرى باللغة الفرنسية التي أصدرتها « دار المطبوعات الجامعية الفرنسية » ، وأشرف عليها العلامة الاستاذ موريس كروزيه *Maurice Crouzet* ، وأسهم بتدريج أجزائها نخبة من المؤرخين الثقة المشهود لهم بالمعرفة والتدقيق فأعجبنا بها الاعجاب الشديد سيما وان كل مؤلف أخذ على عاتقه درس حضارة القطر أو الشعب أو العصر الذي أشبعه تمحيصاً . وعمق الابحاث التي وردت في هذه المجموعة وجديتها من حيث تقصي الحقائق والوقوف على الآثار وتحليلها منطقياً وربطها مع زميلاتها ربطاً محكماً لاظهار مختلف مراحل التطور الحضاري الانساني حملنا على انتخاب هذه الموسوعة وتقديمها لقراء الضاد دون ان نغفط حق زميلاتها أو ننتقص من صفاتها .

وتأتي هذه المجموعة الفرنسية على درس الحقائق التاريخية منذ أقدم عصور الحضارة الانسانية وأعرق الشعوب ، فتشرح الشرح العلمي المستفيض الوقائع والحوادث والأحداث التي عاشتها الامم في العالين القديم والجديد على مر الأجيال والقرون... وهكذا تبدو هذه المجموعة سجلاً حافلاً من حيث الواقع والعلم لتاريخ الانسان منذ أطواره الأولى المتوعدة في القدم حتى عصرنا الحاضر دون التوقف عند هذه الأمة أو ذاك البلد فتظهر اذ ذاك حضارتنا المعاصرة ابنة الجهود الغابرة .

ومن مميزات هذه المجموعة انها أتت شاملة كاملة فوصفت لنا طرق العيش ونظام الحكم والاسس الاجتماعية والاساليب التجارية والمعتقدات الدينية والنشاطات الفكرية والاطوار الفنية الخ... فلم تترك شاردة إلا وبلغتها أو واردة إلا واحلتها في اطار واقعي ومنطقي عز نظيره ، فغدت من ثم معلماً وهادياً لابن القرن العشرين ، ان استوعبها وقف على حقيقة تاريخ الانسان . وقد بسطت مجموعتنا المذكورة هذه المادة الخصبه بأسلوب رشيق متسلسل ، وضمت من الخرائط والرسوم العدد الوافر ، ووقفت على ما اكتشفه رواد وعلماء الآثار حتى سنة ١٩٦١ ، وأعلنت القياس والمنطق أو التخمين - عندما يعجز المنطق والأثر المادي - ... حتى غدا معها التاريخ علماً حياً شيقاً .

واننا لا نلقي القول على عواهنه بل نضع أمام القارئ اللبيب عناوين أجزاء هذه الموسوعة وأسماء مؤلفيها فيؤكد بأن القوس أعطيت باربها .

المجلد الأول : الشرق واليونان القديمة *L'Orient et la Grèce Antique*
لؤلفيه اندريه ايمار *André Aymard* عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية في باريس ، وجانين أوبويه *Jeannine Auboyer* امينة متحف غيمه .

المجلد الثاني : روما وامبراطوريتها *Rome et son Empire*
لؤلفيه : اندريه ايمار *André Aymard* عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية في باريس وجانين أوبويه *Jeannine Auboyer* امينة متحف غيمه .

المجلد الثالث : القرون الوسطى *Le Moyen Age*
اتساع الشرق ومولد الحضارة الغربية
لؤلفه : ادوار بروي *Edouard Perroy* استاذ في السوربون .

المجلد الرابع : القرنان السادس عشر والسابع عشر *Les XVI et XVII siècles*
تقدم الحضارة الاوروبية وتضعض الشرق (١٤٩٢ - ١٧١٥)
لؤلفه : رولان مونييه *Roland Mausnier* استاذ في السوربون .

المجلد الخامس : القرن الثامن عشر *Le XVIII siècle*
عصر النور (١٧١٥ - ١٨١٥)
لؤلفيه : رولان مونييه *Roland Mausnier* وارنست لابروس *Ernest Labrousse* استاذين في السوربون .

المجلد السادس : القرن التاسع عشر *Le XIX siècle*
ذروة الاتساع الاوروبي (١٨١٥ - ١٩١٤)
لؤلفه روبر شنيروب *Robert Schnerb* استاذ الصف الاول العالي في ليسه كليرمون - فران

المجلد السابع : العهد المعاصر *L'Epoque Contemporaine*
بحثاً عن حضارة جديدة
لؤلفه موريس كروزيه *Maurice Crouzet* ، مفتش المعارف العام في فرنسا

ويؤسفنا القول إن المكتبة العربية تفتقر الى مثل هذه الموسوعات المفيدة العلمية على غنى تراثنا القومي ووفرة كتبه . وكـم تشوقنا الى الوقوف على مراحل الحضارة العالمية من خلال مؤلفات عربية يضعها أبناء الضاد أنفسهم ، وما كان العرب يوماً الا سابقين في مضار المعرفة والعلم والتأليف ، وقد استنار الغرب بكتبهم الموضوعية أو المنقولة ، وما كان أسعدنا لو ان أبناء

علمنا العربي قاموا بمثل هذه الدروس الموسوعية بالاستناد الى غنى شرقنا — مهد الحضارة ومنهل الأمم — وتفتحهم على الثقافات العالمية .

ورغبة في سد هذه الثغرة والتعاون مع من أخذوا على عاتقهم نحو هذا النقص نقدم لعلمنا العربي أبحاث هذه الموسوعة الفرنسية في لغة الآباء والاحفاد ... مع ما في الأمر من صعوبة وارهاق .

ولا مجال هنا للبحث في طرق النقل أو الترجمة . فقد ارتأى بعضهم في هذا المجال ان يزدوا على النص الاصيل أو ينقصوه أو يفسروه طبقاً لرغبة أو تنويراً للقارئ أو تقويماً لأفكار المؤلف . أما نحن فقد تقيدنا تقيداً أميناً بنص الموسوعة الفرنسي ونقلناه نقلاً حرفياً — دون اعتبار صحة الآراء أو بطلها — وان كنا لانجاري المؤلف في بعض آراء أو نظريات أو استنتاجات ، اذ اننا نقدم لقراء الضاد ما قاله المؤلف الفرنسي على علته وهناته ؛ وتشويه الأفكار أو تحويرها أمر غير مستحب وان كان تقويمها ضرورياً ... ولكن في بحث مستقل ! ووضعنا نصب أعيننا مجارة النص الفرنسي كما ورد دون تقديم أو تأخير — جهد المستطاع — على ما في هذا النص من تشابك صرفي وتركيب نحوي واستدارات في السبك وتطويل في الجمل . وحرصنا الحرص الكلي على التقيد بروح المؤلف واستدراكاته وتميزاته البيانية حتى في بسط الاسلوب مع ما في الامر من جمل اعتراضية ونقط وفواصل الخ . لذا قد يبدو هنا وهناك بعض الوهن في حسن التركيب من حيث قواعد اللغة والادب ؛ ولا نرى غضاضة في ذلك ، اذ المؤرخ — ولو كان أديباً بالسليقة — لا يتوخى التتميق وجمال التعبير بل سرد الحقيقة المجردة دون خيال مجنح او لجوء الى أساليب بيانية . ونقل مثل هذه التراكيب والعبارات الى لغة الضاد — مع المحافظة على الكلمة روحاً ونصاً — قد يضطربنا بعض الممار الى تخطي حسن السبك والاسلوب العربيين بغية التوفيق بين الاصل الفرنسي ومرادفه العربي ، اذ لكل لغة نفس وتقنية نحوية .

واعتمدنا في نقل أسماء العلم على اصولها ومواطنها الأولية مراعين قدر المستطاع ما غدا أمراً متداولاً . وهكذا سعينا جهدنا لكتابة الاسم اليوناني مثلاً كما ورد في لغته الاساسية ... باستثناء الاسماء التي جرى التعارف في كتابتها ولفظها على امر مستقر كاسم ارسطو بدل ارسطوطاليس . وقد استمعنا لنفسنا أيضاً ، عند تعذر كل وسيلة ، ان نعتمد كأساس الكلمة الفرنسية التي وردت في النص المنقول . وحرصاً على الدقة والامانة اللفظية لجأنا الى سفارة الجمهورية الهندية في بيروت لتعيننا على حسن كتابة الاسماء الهندية الصرفة فلاقينا منها تجاوباً وحسن مساعدة تذكر فتشكر ، اذ غني عن البيان بأن الحرف اللاتيني قد لا يعبر التعبير الصحيح الدقيق عن كيفية لفظ وكتابة الكلمة الغريبة عنه هندية كانت أم عربية أم صينية .

ولا بد من الجهر أيضاً بأنه من الصعب الوقوف على كلمة عربية واحدة لبعض المصطلحات الفرنسية التي نحتوها للتعبير عن مبدإ فلسفي أو عقيدة دينية مما أهاب بنا الى تأدية معناها بأكثر من لفظة أو احياناً بنقش كلمة عربية — مثلاً استغرق نسبة الى تبني حضارة الاغريق —

قد توافق لفظ المصطلح الفرنسي، او باعتماد طرق الاشتقاق اللغوية العربية، ولا ترى في الأمر خرقاً لقاعدة او تجاوزاً على صلاحية .

واننا وقد ألزمتنا أنفسنا بأمانة النقل نرى من واجبنا استطراداً لما قبل أعلاه بأن نؤكد من جديد بأننا لا نتبنى ولا نؤيد شخصياً بعض النظريات التي ساقها المؤلف ، دينية كانت أم اجتماعية ، او بعض المبادئ السياسية والوقائع التاريخية التي اعتبرها المؤلف كحقائق . هذا مع لفت النظر الى ان تفسير الاحداث والحوادث التاريخية قد يتطور، وقد يناقض عالم تاريخي ما قاله زميل له على اعتبار ان المصادر والآثار لم تستنفذ بعد تماماً؛ وقد يكشف الغد وثائق تغلب بعض الاعتبارات التاريخية رأساً على عقب . ومن الحق القول إن مؤلفي هذا الكتاب يجهرون صراحة بأن الرأي الذي ابدياه هو اجتهاد قد يحوله ويحوره ما سيعثر عليه عالم آخر من آثار أو يحلل من رموز كتابية لا تزال تجهلها الى يومنا .

ومع علمنا بوجود كتب تاريخية عربية قيمة نقلت عن لغات غربية يسعدنا بأن نقدم لقراء الضاد المجلد الأول من موسوعة موريس كروزيه التاريخية هادفين الى اعلاء كلمة العلم وشاكرين لدار « منشورات عويدات » في بيروت ما لاقينا من تشجيع ، هذه الدار التي أتحفت المكتبة العربية ولا تزال بكتبها الفلسفية والقانونية والاجتماعية والقصصية ، والتي لن تألو جهداً لتقديم سائر أجراء موسوعة كروزيه التاريخية للعالم العربي .

والمولى ولي التوفيق وعليه الاتكال .

هيئة الترجمة

obeikandi.com

مقدمة عامة لتاريخ الحضارات العام

انها لأول مرة على ما نعلم ، يصدر في تاريخ الادب الفرنسي ، كتاب بهذا العنوان يتوج مجموعة من الكتب تتجه للرأي العام ، بمثل هذا الشمول . فهل في الامر ما يدعو للاستغراب ، بعد ان سبق للوسيان فيفر ووضح كيف ان كلمة « حضارة » دخلت مصطلح العلوم متأخرة في الربع الاخير من القرن الثامن عشر ، وان مدلولها الكامل لم يتضح على الوجه الامثل ولم يستقر مشتمله الأوفى الا بعد ذلك بكثير .

وعلى نقیض البربرية ، عنى المصطلح الجديد ، على لسان فلاسفة القرن الثامن عشر العقليين وكتابه الشعبويين ومن لف لفهم ، مجموعة من الخطط والنظم القمينة بإشاعة النظام والسلام والسعادة ، وتطور البشرية الفكري والادبي ، وبتأمين انتصار الانوار . فالحضارة والحالة هذه ، « وضع مثالي وحقيقي في آن واحد ، عقلي وطبيعي ... ، سبي و غائي » .

وراح القرن التاسع عشر بدوره يكتن لهذه الفكرة الاوروبية المحور ويرستخ لها في الازدهان . ووضع تقدم العلوم والتكنولوجيا بين ايدي الاوروبيين طاقة مادية بلغ من شأنها ما ادخل في روعهم تسامي حضارتهم وافضليتها على سواها من الحضارات الاخرى . وهكذا « اخذ القرن التاسع عشر ينظر الى حضارته كالحضارة البشرية الفضلى » ، وراح يعتقد أن من حقه فرض هذه النظرية على العالم كله بالقوة حتى تبناها وعمل بها ونهج عليها . الا ان طمأنينة الضمير الاوروبي لم تتعد هذا القرن ، وقد انتهى امرها الآن ، كما يستدل من التعابير التي درجوا على اصطلاحها تشاؤماً ، اذ كثيراً ما يتردد على شفاه الكتاب عبارات كهذه : « ازمة الحضارة » ، و « الحضارة في خطر » و « الحضارة على المحك » .

لهذه الاسباب ، فتاريخ الحضارة في مفهومه القومي الرحب ، هذا التاريخ الذي يتناول بالدرس سجل الجماعات البشرية والمدنسات ، ويرى في هذا التراث المتأني الينا مراحل التطور الذي عرفته الانسانية في رقيها الصاعد ، ويحصى على كل جماعة ما اسدته من خير للتراث المشترك ، يصعب تجريده من غاية تجعل الحضارة وقفاً علينا نحن الاوروبيين ابناء القرن العشرين .

صحيح اننا شهدنا ، في غضون العصور الاخيرة ، تحت تأثير اوروبا الحاسم نفسها توارى او زوال معالم حضارات كثيرة واصيلة ، وذلك اقله تحت ستار الدعوة الملحة لتوحيد نظم الحياة .

ولهذا اخذ يتبدى لنا ان هنالك حضارة موحدة آخذة بالتكون ، مستوحاة على الاخص من الغرب في مدلوله الاوسع . كل هذا صحيح . غير ان هذا التطور نحو الوحدة لم يتم الا من عهد قريب ، وهذه الالوف من السنين التي يتألف منها تاريخ البشرية ، مرت بأدوار من الركود والقهرى ، وبأطوار من الانعزالية والقطيعة ، بحيث تفرض علينا الحكمة العزوفه عن مثل هذه النظرية .



اما ان نكون امام حضارات متعددة لا حضارة واحدة وحيدة ليس بينها ما يدعي الرئاسة المحتموة ، فهذا امر مسلم به اليوم بين علماء الاجناس البشرية والمؤرخين والعلماء الاجتماعيين اذ يقر هؤلاء بالاجماع ان لكل جماعة بشرية على شيء من النظام ، مدينتها الخاصة حتى ان للاقوام المتوحشة حضارتها الخاصة بها .

كذلك من الامور المسلم بها اليوم عدم الاخذ بالنظرية الضيقة التي تقول بتاريخ واحد للحضارة .

فقد شهدنا بالفعل في السنوات العشرين - وفي فرنسا على الاخص ، منذ ظهور البحث الداوي الذي وضعه مارسيل موس - تطوراً حوّل انظارنا من نظام سام وحيد للحضارات يفرض مقولات سامية - الفنون والآداب ، والذوق حتى والعلم - ليردها الى مظاهر الواقع الحيائي ، المادية غالباً والاقل بروزاً واثراً . فقد حاولوا ، تارة عن طريق المؤثرات الثقافية (فكرة ، اداة ، مهارة فنية ، وصفة مطبخية ، حركة في اللبس) وطوراً عن طريق الحقب الثقافية (الاسس الجغرافية للحضارات) ان يستبدلوا الدروس التقليدية ، بدروس موضوعية لا اثر فيها لهذه التجريدات الغيبية المليئة بالاحكام المقومة . وهكذا حاولوا بمعزل عن الناس وعن اعالمهم (مشاهير الرجال وآثارهم الباقية) وبمعزل عن تيارات العوامل المؤثرة ان يحددوا الشروط المادية والاجتماعية وغير ذلك من العوامل التي كثيراً ما عاجلها التاريخ التقليدي معالجة سقيمة او مر بها على الاقل مروراً عابراً

نرى في ماضي البشرية وتاريخها السحيق ، حضارات عديدة لكل منها مجموعة من الافكار والنظم السياسية ، ومستوى من العيش المادي والتقنية ، وطاقات على الانتاج وقدرة على تأمين العلاقات الاجتماعية على اختلاف مظاهرها : الدينية والفكرية والفنية . ليس من قصد الاجزاء التي تتنظم هذه المجموعة التي تظهر بعنوان « تاريخ الحضارات » ان تلبنى هذه او تلك من النظريات الضيقة التي جبي بها باسم العلم ، او هذا المعنى الخاص على حساب غيره او باستثناء غيره . فالتاريخ ليس إثارة او تخيلاً ، بل استحضاراً للماضي بكل مظاهره وواقعه . فعلينا اذاً ان نصف بدقة المظاهر الحياتية المتعددة التي تؤلف مجتمعة كلاً متجانساً وان نستعرضها للافهام في وحدتها الزمنية والمكانية ، كما يتوجب علينا ان ندرس المؤثرات التي تفاعلت بها

هذه الحضارات وانفعلت . هذا ما يهدف اليه التاريخ العام الذي وضعناه للحضارات .

نقطة الانطلاق عندنا جهد موصول سداه التحاليل ولحمته الوصف بقية ابراز الخصائص المفردة لكل حضارة ، وتحديد ما اسدته من خدمة للتراث الانساني النامي . هل بالامكان الذهاب الى ما هو ابعد ، ورسم خط بياني منح كل من هذه الحضارات تستبين معه مراحل التقدم او التأخر التي قطعتها ؟ وهل بالاستطاعة السير الى ابعد لنستخلص من هذه المشاهد والمرئيات الملاحظات التي توحى بها النواميس التي تنهض عليها الصيرورة الاجتماعية التي رسمتها هذه الحضارات المتباينة ؟ ان محاولات التأليف العظيمة الباهرة التي شهدناها حديثاً والتي قامت على اساس من التفسير الجدلي في الازمنة الحاضرة والمستقبل الطالع ، واتفاق الرأي لدى المؤرخين وعلماء الاجتماع ، كل ذلك اوضح بصورة جلية ضرورة الاعتصام بالفطنة في مجالات البحث الحديثة العهد هذه . ان تصنيف الحضارات ، ومبادئ ، الرقي ، و « التأخر » كل ذلك يجعل للتطور البشري مدلولاً ميتافيزيقياً ، يجب ان يبقى بطبيعة تعريفه بعيداً عن المؤرخ .

وستحاول هذه المجموعة ان تتفادى ما يتصل « بفلسفة التاريخ » ، هذه الفلسفة التي تبقى دوماً من العنديات العرصة ابداً للحدس والجدل ؛ يهنا قبل كل شيء ان نصف وان نفسر الامور ، لا ان نصدر احكاماً قوامها لون من الوان الحضارة المثالية .

تجاهلت البشرية وحدتها مدة طويلة . فلم يكن هنالك بشرية واحدة بل بشريات وحضارات . فقد ارسيت في اواخر القرن الخامس عشر مع الاكتشافات الجغرافية العظيمة الحاسمة الاسس والامكانات التي تدعم وحدة كرتنا الارضية ، هذه الوحدة التي كان علينا تشييدها فعلاً . ففي القرن الثامن عشر تمكن الانسان من استكشاف مجاهل اوقيانيا واستراليا ، كما قام خلال القرن التاسع عشر باكتشاف المناطق المجهولة في افريقيا وقطي الارض الشبالي والجنوبي . ووحدة عالمنا هذا كانت تبقى وحدة منقوصة لو لم تقم على اسس علمية ، وكانت بقيت مجزأة مخرومة لو لم ينتظمها اقتصاد عالمي متماك . هل بدا شيء من هذا قبل ظهور السفن الشراعية في القرن الثامن عشر ، او بالاحرى ، قبل الثورة التي اطلقها البخار ، هذه الثورة التي لم تبلغ اوجها الا في منتصف القرن التاسع عشر ؟ لا وائم الحق . وعلى هذا يجب ان نقيس احداث التاريخ العام ، اذ يطالعنا في البدء السحيق ، فجر الحضارات الاولى ، والانتقال بالسير البشري من عصور ما قبل التاريخ الى التاريخ ، فتعاقب التواريخ والمدنيات على اساس من الترابط والتفاعل الى ان طلع علينا عالم موحد .

ان عرض هذه المادة التاريخية الوافرة في المجلدات السبعة التي تتألف منها هذه المجموعة الار في وجهنا صعوبات دقيقة . « فالسرعة التي يتكون بها التاريخ » ونمو معارفنا وازديادها حتياً

علينا ان نخص كل جزء من هذه الاجزاء ، دوراً من ادوار التاريخ العام يقصر او يطول كلما دنونا من التاريخ المعاصر .

لم يكن في الامكان ان نستعرض في المجلد الاول من هذه المجموعة ، ونحن بعد عند عتبة التاريخ ، بروز هذه الحضارات وتطورها وفقاً للترتيب الزمني ونتولى درسها وإجالة النظر فيها وتتبع احداثها من ذاتها وبذاتها باعتبارها كتلة قائمة . ومن اين نأتي بتاريخ صادقة صحيحة لكل هذه المدن المتعاقبة ، بما فيها مدن الهند والشرق الاقصى ؟ وكيف نتفادى التكرار في مثل هذه الحال ؟ هنالك مدنيان من اضخم المدن التي ظهرت في التاريخ القديم : المدينة المصرية ومدينة بلاد ما بين النهرين ، تؤلفان معاً كتلتين متجانستين بالرغم مما بينهما من فوارق وخصائص مفردة ، استمرت اكثر من ثلاثة آلاف سنة . فدرسها درساً افقياً في ادوار تاريخية منفصلة امر يتعذر الاخذ به والوقوف عنده . ان هذه المدن وغيرها بما ضرب صفحاً عن ذكره هنا قلما تأثرت بعوامل من الخارج ، وان حدث ذلك احياناً اقتصر التأثير فيها على الاطراف الخارجية ، وظهور المدن العارضة وتطورها في الأقطار المجاورة لهذه المدن قد حال دونها او أخر ظهورها معارك طاحنة دارت رحاها بين هذه المدن الضخمة ، في نفس هذه الاقطار . لا شك في ان نهجاً من هذا النوع كان افضى بنا الى صورة ناقصة حيناً ، ممزقة احياناً لعدم تكافؤ معلوماتنا من جهة او لتفاوت ظاهر بين هذه المدن مستوى وشأناً .

وقد حدث ، بعد ذلك بكثير ، اي بعد اوائل العهد الميلادي ، في نطاق العالم القديم على الأقل - : آسيا واوروبا وافريقيا - اولى المحاولات لمقارنة هذه التواريخ ولربطها بعضاً ببعض فجاءت اجزاؤها متنافرة غير محكمة كما ان هذه التواريخ بقيت احياناً طويلاً متشابكة مترابكة .

الا ان توطد العلاقات بين الشعوب واشتداد اواصرها بين مختلف الحكومات والحضارات المنعزلة فيما بينها من قبل ، والعثور على المزيد من الأصول والوثائق التاريخية كل ذلك مكن للأخذ من جديد بنظرية الاطوار الزمنية والاعتصام بها واتاح للمؤرخ ان يشدد ، اكثر فاكثراً ، على بعض الاحداث والشخصيات التاريخية البارزة ، واظهار ما لها من اضاء كاشفة . ولكن لم يلبث ان اتضح شيئاً فشيئاً وجوب التحرز من التبسط في السرد والاستطراد في القول والوصف ، اذ ان المهم في هذا كله ان يرسم المؤرخ للحقبة التاريخية التي يتناولها صورة واضحة جلية ، ما امكن ، تأتلف كل الائتلاف وتنسجم مع الاكتشافات العلمية الحديثة .

ولا بد للقارئ الواعي من ان يلاحظ ان كثيراً من الاحداث التاريخية التي يحلو لبعض الكتب التقليدية سردها بالتفصيل قد ضرب صفحاً عنها او لم يؤت على ذكرها الا مائماً . ولا يتوهم احد قط اننا « ننتقص من اهمية الاحداث الثابتة الآخذ بعضها برقاب البعض وفقاً للتسلسل الزمني » او انه سها عن البال تعريف التاريخ كما حدده البعض من انه « علم الواقع المحيظ » . فنحن اول من يقدر المحاذير المترتبة على « تجريد التاريخ من الواقع القائم » ، ولا يدور في خلدنا ، في ردة عكسية ضد مفهوم التاريخ قديماً الذي كان لا يهتم الا للأمور السياسية

والحربية والدبلوماسية ، ان نغضي عن ذكر هذه الوقائع التي تؤلف أسس المدنيات والحضارات البشرية . فنحن اول من يعترف باهمية هذه الوقائع ، وقد حرصنا على احلالها المحل اللائق في تضاعيف هذا التاريخ وتقدير الدور البالغ الذي كان لها في الحضارات المتعاقبة . وقد همتنا منها ، في الدرجة الاولى الأمور الاقتصادية والاجتماعية ، وشددنا بنوع خاص ، على التطور التقني وعلى القضايا التي تتصل بصميم السكان ، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا . ان حرصنا الشديد الا^ن نولي هذه المجموعة من المجلدات اهمية اكثر مما تستحق ، واليسر الذي يستطيع معه الباحث التوثق من الاحداث السياسية المعروفة ، كل ذلك حدا بنا احيانا الى التنويه بها في الجداول الزمنية الترتيب او في الابزائيات التي تتكون الاطار الوضعي لتاريخ الحضارات .

ان تاريخ الحضارات الذي يعنى بوضعه هنا انما يتجه في الدرجة الاولى من الرأي العام المثقف وليس من العلماء الاختصاصيين . ولذا فقد ضربنا صفحا عن ذكر الشواهد والمراجع والمناقشات الجدلية التي جيء بها لاثبات رأي او لدحضه . فقد حرصنا على اثبات قائمة موجزة متواضعة من المصادر والمراجع يمكن لمن يرغب في التوسع اعتمادها والركون اليها . اما الصور والرسوم ، فتهدف لتوضيح النص باعادة جانب من الجوالتاريخي الذي سيطر على هذه المدنيات دون ان يكون الغرض الاول منها التوثيق .

لست ارى بعد هذا ، موجبا يدعوني لتقديم المؤلفين الذين قبلوا القيام بوضع هذا التاريخ العام للحضارات البشرية ، اذ لهم من مؤلفاتهم ومن آثارهم في حقل التعليم والتدريس ما احلهم المحل اللائق بين زملائهم المؤرخين في فرنسا . وهل لي ان ازيد هنا ان هذه المجموعة من المجلدات التي يتألف منها هذا التاريخ لم يكن في الامكان تحقيقها ، لو لم يقم منذ ربع قرن تيسار جارف يتمثل على اشده في المأسوف على علمه المرحوم مارك بلوك الذي له الفضل الاكبر في تجديد الدراسات التاريخية في فرنسا ، فسدد الابحاث ووجهها شطر تاريخ مبسط يرتبط ارتباطا وثيقا بالعلوم البشرية الاخرى ؟ فقد كان من اولى واجباتنا هنا ان ننوه بفضل الرواد في هذا الحقل الذين مهدوا السبل امامنا .

موريس كروزيه

obeikandi.com

مدخل

من وحدة العصرالظرافي الى الشؤوع التاريخي

ظهور الانسان يضيع ظهور الانسان على الارض بين العصور الجيولوجية السحيقة . وقد اصبح ظهوره ممكناً منذ الدور الجيولوجي الثالث إذ كانت ظهرت فصائل البهيموث . ويشمرجح هذا الظهور في أواخر الدور الجيولوجي الثالث ، عندما كانت تسرح في بطاح الارض وقرح وحدات من فصائل الفيل الجنوبي . ويتأكد هذا وبثبت في الطور الاول من الاطوار ما بين الثلجية الاربعة التي عرفها الدور الجيولوجي الرابع . أما اذا ما حاولنا ان نحدد الازمنة والاقوات لهذا الظهور فلا بد من ان يأخذنا الدوار . وراح بعض علماء الهيئة في تحليلهم الادوار الجليدية وتقدير مداها ، يقدرون الفترة الاعدادية للدور الرابع بمائة وخمسين الف سنة ، بينما يجعل غيرهم امتداد هذه الحقبة لاكثر من خمسمائة الف او ستمائة الف سنة . اما الدور الجيولوجي الثالث فيقدر بعضهم امتداد حقبته ثلاثين مليون سنة . ولا نعرف تاريخ اي شعب من شعوب الارض يرجع الى ما قبل الميلاد باربعة آلاف سنة . ويعتري الواحد منا قشعريرة عندما ترقص امام عينيه ارقام مثل ٤٢٤٥ - ٤٢٤٢ قبل الميلاد وهو التاريخ الذي يحدده التقويم المصري القديم ، بدءاً للتاريخ المصري القديم .

فالانسان في مثل هذه الحقب المتهالكة في القيدم هو الانسان الحيوان ، او الانسان الشبيه بالبشر . اما الانسان المنتصب القوام ، ولا سيما الانسان العاقل ، المدرك ، فلم يظهر إلا بعد ذلك بوقت طويل . فالانسان العامل ، صنع البدن ، الذي يستعمل الادوات ويتحسسها ، قد تقدم الاول كما تقدمه بدوره جنس من شبه الادميين . وكثيراً ما اكتشف علماء الآثار بعض مصنوعات دون ان يعمروا على شيء من بقاياها العظمية ، وان وجدوا شيئاً منها فهو نادر ومبعثر . والذي يجعل اهمية خاصة للانسان الصيني الذي عثروا على بقاياها في تشو كوتيان ، على بعد ١٠٠ كيلومتر الى الجنوب من مدينة بكين ، وللانسان القرد الذي اكتشفوا بقاياها في بلدة تربفيل ، على مقربة من جافا هو ما يجعل العلماء قادرين على ان يتتبعوا ، في هذين المكانين ، بعض معالم التطور الذي بلغ معه الانسان منزلة الانسان العاقل . اما الاماكن الأخرى ، فعلى عكس ذلك تماماً كما يظهر

في افريقيا الجنوبية مع الانسان القرد الجنوبي ، في الترانسفال وفي اوروبا ، حيث يوجد فجوات من الفراغ بحيرة .

ففي اوروبا على الأخص نجعل كل شيء عن إنسان عصور ما بين الجليدية إلا بعض بقايا نادرة جداً من هيكله العظمي الرميم ، دقيقة الحجم . وقد عرّف العلماء المصنوعات الرئيسية المتخلفة عن هذا الانسان ، بمصنوعات العصر الحجري المشطى . أما انسان العصر الجيولوجي الرابع او العصر الموستري كما اصطلاحوا على تسميته فهو معروف اكثر باكثر ، إذ انه يتمثل بانسان العصر النياندرتالي الذي انتشر على مساحات واسعة ، هو هو نفسه تقريباً بشكله الواحد ، أينما وجد : في اوروبا الغربية ، وفي جميع انحاء افريقيا او في البلدان الشرق الاوسطية ، ومع ذلك فهو ليس من جنس الانسان الحقيقي . وهكذا نرى أنفسنا امام جنس آدمي جديد أو بشرية جديدة ، طلعت اصولها من أقاصي آسيا لم تلت ان قضت على «البشرية القديمة» ومحقتها .

ولكن هؤلاء الاقوام الجدد ينتمون الى ما اصطلاح المؤرخون على تسميته العصر الحجري القديم بانسان العصر الحجري القديم ، مشطى كان ام مصقولاً ، عاصروا منه احدث ادواره او الدور الحديث منه ، عاشوا في الغراء كلما سمح لهم الجو بذلك ، وسكنوا الكهوف ومخابئ الارض ، يعولون في معاشهم اكثر ما يعولون عليه ، على الصيد والقنص ، وعالجوا استعمال حجر الصوان واتخذوا منه سلاحاً بعد صقله ، ودببوا منه الرأس ، وحددوا الاطراف ، كما اتخذوا ادوات لهم من عظام الحيوان وقرونيه ، وعرفوا النقش والحفر والرسم ، وتوصلوا الى افراغ بعض الادوات في قوالب واشكال معينة .

وقد حفظت لنا جدران المغاور والكهوف التي سكنوها بعض معالم الفنون البدائية التي زاولوها على شيء من الذوق والصنعة الفنية ، متخذين لهم في بادىء الأمر مادة لصورهم بعض الحيوانات التي دجتها ، وبعد ذلك بكثير ، الجسم البشري ، محاولين جهدهم في كل ما عالجوه ان يتركوا مسحة من جمال ترسموه . ففي عالم مجهول غامض ، كل ما فيه يدعو الانسان للعجب والحيرة والتحيز ، تترصده الاعداء ، من كل جانب ، حاول الانسان ان يدرأ عنه الغوائل والمخاطر فيتخذ سلاحاً له كل ما تصل اليه يده ، واداة لخدمته ، كل ما يعينه على العيش . تعرّف الى العلائق والاصداق والاساور فاتخذ منها زينة له وحلية كما اتخذ من بعضها تعاويذ واقية ورقى . وتوصل الى صنع بعض دمي ، بشرية الصورة ، انثى الشكل ليرمز منها الى الخصب والانسال ، واصطنع صوراً شتى للحيوان يدرأ بها العين الشريرة والسحر الذي كثيراً ما وقع تحت تأثيره . وهو في كل هذا يحاول فرض سيطرته على الحيوانات المفترسة ، كما يحاول تدجين الانواع التي يفيد منها في معاشه او تؤمن له الصيد الوفير . وكان يشارك باحتفالات ومناسك دينية يترأسها سحرة ينصرفون اليها في المغاور المظلمة . وهكذا من تعاويه اعمال السحر واستسلامه لطرق السحرة ظهرت الفكرة الدينية عنده ، وكان السحر والفكرة الدينية يصطبغان كلاهما بمسحة من الفن البدائي .

ويؤيد أكثر من اكتشاف علمي ان الانسان ، منذ العصر الحجري القديم ، أخذ يهتم بإطراء صاعد ، بموتاه وتأمين دفنهم ، وإعداد اجسادهم وتجميعها في محل معين ومجاعاتهم إذ تراه يذُرُّها بالمَعْرِة ويمدها بالجلي والزينة والتقادم وبيع الحوم . وقد تحدثت معالم هذه المناسك وعم استعمالها ، بعد ان كانت في الاصل تعبيراً عن مشاعر الانسان يتقي بها مغبة الثأر والانتقام المتوقعين . إلا ان هذه المراسم لم تلبث ان اصبحت عزيزة عليه كريمة عنده ، إذ رأى فيها ايماناً بعقيدة الخلود والبقاء . وهكذا نرى كيف ان السحر افضى بالانسان الى ابعاد مما كان يتوقع له : الى عبادة الموتى وتكريمهم .

استطال امد العصر الحجري القديم في اوروبا من حضارة العصر الحجري الحديث الى عصر الحديد اكثر منه في اي مكان آخر ، ولا سيما في غربي جنوبي فرنسا ، وفي الغرب الشمالي من شبه الجزيرة الايبيرية . واستقرت الاجناس البشرية فيه على عروق مشهورة كالعرق المغدلاني ، والعرق الازبالي . الا ان ظهور اجناس بشرية أخرى ادى الى زوال العروق التي كانت تنهض بهذه الحضارة او الى إقصائها وابعادها الى اماكن نائية صعبة المنال ، كافريقيا مثلاً حيث عجزت عن القيام باي دور بارز . فلم يحدث هذه المرة ، اقله في اوروبا ، تطور محلي ، بل غزو جارف طلع من الشرق المتوسطي قادمساً من الجنوب ، ومن جهات اخرى اقصى ولا شك ، من الشمال الشرقي . فلم يؤلف الغزاة القادمون ، كما في الماضي ، بشرية جديدة ، بل كانوا من صمم الجنس البشري السائد الذي تمكنت بعض عروقه ، في اماكن معينة ، من التطور في المظهر الخارجي وفي الحضارة . وقد استطاعوا ان يؤلفوا ، من الوجهة العرقية جماعات كبيرة متباينة بينها الطوائف المتوسطية والجليليون (القوقاس - والألتاي) والطوائف الشمالية . والاهم من هذا كله ، هو ان الحضارة استطاعت في عهود متباينة بقبان البلدان التي قامت فيها ، ان تتجه اتجاهاً مغايراً للاتجاه الذي سارت فيه حضارة العصر الحجري القديم . ويجب الا يغرب عن البال ان كلا الحضارتين عرفت اتصالات سابقة فقد تعرضت حضارة العصر الحجري القديم لتسربات ومؤثرات طارئة ، كما انها اعطت لدى زوالها الحضارة التي عقيتها عادات واعرافاً تتعلق بالجنائز والمآتم . ومع ذلك فقد كانت حضارة جديدة لم تلبث ان انتشرت وعم استعمالها .

وهذه الحضارة الجديدة ، عرفت لدى المؤرخين بحضارة العصر الحجري المصقول . فقد لبث الحجر العنصر الرئيسي الذي استمد منه الانسان اجهزته وادواته الضرورية ، الا انه حفر اقصى من الصوان ، آثره الانسان لما فيه من صلابة بعد ان عرف كيف يصقله ويهذه كما يشاء . وقد سجل الانسان مراحل عديدة في تطوره الصاعد ، فقد اصبح راعياً وتمكن من تدجين بعض الحيوانات ، ولم يلبث ان اقبل على الارض يحرثها ويستنبثها ، فقطع الاحراج وعزف على التربة يستخلصها من الاعشاب المؤذية ، واخذ يتخير بعض فائل الزرع يستعيد منها الانواع ويستطيب كريم الاصل حتى استقر به المقام ، فتحضر ورأى نفسه مرتبطاً الى حد بعيد بما

لديه من زرع وضرع وبما يحرق من اراضٍ وحقول. واخذ في بناء اكواخ له ومنازل لسكناءه، ثم تألب جماعات ما لبثوا ان ألتقوا مجتمعاً يربط بين افراده روابط من العمل المشترك والدفاع المشترك عن سلامة المجموع . واتخذ له من صوف الحيوانات ومن بعض الالياف النباتية ألبسة خاطها ملبساً له استبدل بها جلود الحيوانات التي كان يعول عليها في لباسه من قبل . وعرف كيف يتخذ له مادة مما تقع عليه عينه من معرّش النبات والقصب ومن الدلغان المزوج ليصطنع من هذا كله السلال والخزف .

ثم تعلم كيف يستخدم خامات المعادن كالنحاس والذهب وكيف يستخرجها من مزيج الفلزات ، ثم توصل تدريجياً الى اخلاط كثيرة ، كالمخلوط بين النحاس والقصدير لاصطناع الشبهان او البرونز . وبعد ذلك نرى الحصان والعجلة والحديد في خدمة الانسان .

كلها خطوات تصاعدية في سلم الحضارة تدعو للاعجاب ، وتشهد من الانسان الرغبة في المزيد . نود ولا شك لو نستطيع تحديد هذه المعالم في مدارج الرقي والتطور والتأريخ لها واقتفاء ما كان لها من اثر بّين ومن شيوع كرتس استعمالها . ولعل اكثر هذه الكشوف واقدامها كلها هي التي طلعت علينا بها مدنيات الشرق الاوسط ، ولا سيما مدينة مصر وبلاد ما بين النهرين ، وهما من اخصب بلاد العالم طراً ومن اكثرها دعة للحياة البشرية . اما الحصان ، فقد وصل الينا من مناطق ابعد وانأى ، اما الحديد فان كان صنعه التقني يعود اصلاً للشرق ، الا ان ندرته في مناطق البحر المتوسط تجعل من العسير جداً تطور هذه الصناعة في تلك المنطقة . فالاكشافان المذكوران يسجلان معاً تطوراً جديداً : هنا معاصراً وهناك لاحقاً . وقد طلعت علينا اقوام جديدة جاءت من الشمال او من الشرق الشمالي : من التركستان والقوقاس والبلقان، تتمثل في غزوات الهند والاوروبيين الذين في غزوات متباعدة متلاحقة ، اخضعوا تبعاً : الهند وايران وآسيا الصغرى واليونان . وقد أخذ الشرق الاوسط يشعر بوطأة هذه الغزوات ابتداءً من سنة ١٤٠٠ حتى اواخر الألف الثاني قبل الميلاد فزعزعت اركان الحضارات التي كانت مزدهرة منذ عهد بعيد ، في هذه الاقطار المحظوظة . اما الغرب الاوروبي ، فقد وصلت اليه صناعة النحاس والشبهان من الجنوب والجنوب الشرقي ، وعرف معها ان ينشئ له حضارات مستقلة قامت على هذه الصنائع . ولم يكن اثر حضارات الشرق الكبرى بلسن الغرب باستثناء بعض المهارات التقنية . فمن الشرق ، دخلت الغزوات والحضارات اوروبا مارةً بوسط القارة وذلك ابتداءً من الألف الاول قبل الميلاد ، كما يظهر من آثار بلدة هولستات في النمسا ومن آثار بحيرة لاتين في سويسرا وكلها تعود الى عصور ما قبل التاريخ في اوروبا .

غزوات وتهجين
إذا ما اردنا ان نتقصى بالتفصيل معالم هذا التطور الذي رسمنا بإيجاز مراحل
الكبرى، كان لا بد لنا من ان نلاحظ هنا هذا العدد العديد من الغزوات التي
انقضت على اوروبا من اقاصي آسيا او من سهول اوروبا الشرقية التي تعتبر بحق امتداداً لها

باتجاه الغرب . فلم نعرف غزوة منها نالت من النجاح ما نالته الغزوة التي حدثت في اواخر-الدور الحجري الوسيط المعروف بالعصر المستري واولئل العصر الحجري الاعلى . وهنالك غزوات اخرى انطلقت في ما بعد متبعة لمرقا اخرى ، فبلغت مشارف البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلسي معاً . وقد لاقت في سيرها صعوبات كانت تشتد مع مرور الزمن ، إذ وجدت نفسها وجهاً لوجه مع حضارات اكثر تطوراً ، واقوى على المقاومة . غير ان تزعر اركان الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث للميلاد ، وانهار هذه الامبراطورية في ما بعد ، في القرن الخامس ، يدلان على ان ليس ثمة صعوبة لا يمكن التغلب عليها .

ولذا كان لا بد لنا من العودة الى ما قبل التاريخ لنعثر على « عرق » بشري أصيل ، يراد منه فريق كبير من الناس لهم ملاحظهم الخارجية السوية الطابع . ان جيل العصر المستري هو آخر من يستجمع هذه الصفاتية او من فرض وجودها . وهذا الجيل هو جيل شقيق لانسان العصر النيندرثالي ، باستثناء بعض الفروق النادرة التي تؤلف بحد ذاتها فوارق ثانوية لا توبه لها . ولكن انسان العصر الحجري الاعلى يمثل هو نفسه انساناً هجيناً كما يسميه مرسلين بول . وقد تكاثرت في ما بعد عمليات التهجين او التضايب ، مع تنالي الغزوات المتعاقبة ، بحيث لم يبق لكلمة « عرق » اذا ما أسقطنا من مدلولها الميزة الخارجية سوى الطابع او النموذج الذي يفرّد الحضارة .

هنا يجب ان نلاحظ ان الانتقال من حضارات ما قبل التاريخ وحدة الحضارات وتنوعها الى الحضارات التاريخية يجعل المدى التاريخي للاخيرة منها يضيق وينكش . فلم تتكرر ابدأ الوحدة التي ميّزت الدور المستري المعروف بالعصر الحجري الوسيط ، او طلائع الدور الاعلى للعصر الحجري القديم . وكانت هذه الحضارات اوسع الحضارات التي عرفتها الانسانية انتشاراً وذيوغاً . فهل من عجب في الأمر وهو واضح كل الوضوح ؟ فالطقس الجميل يحفز للظمن والريادة اناساً مهمهم العثور على الاراضي المطيرة ، يكثر فيها القنص والصيد او اقتفاء قطعان الحيوان التي تؤم الحديث من المراعي الخصب والارض الخضلة . ثم يأخذ الانسان يألف تدريجياً الاستقرار في بقاع ورقاع من الارض تساعد طبيعتها الجغرافية طوائف من الناس على الاقامة فيها ، ولا يلبث بعد ان أمن على سلامته ، ان ينقطع لحراثة الارض وفلاحتها يطلب من خباياها رزقه الحلال .

ومع ذلك ، فقد تطرأ ادوار تسيط فيها وحدة تعم شطراً كبيراً من الناس ، كما لاحظ ذلك علماء الألسنيّة ولا سماً من يعنون منهم باسماء الامكنة الجغرافية . من ابلغ الأمثلة على ذلك ، الاسل اللغوي : « Car » الذي يعني كلمة صخر او حجر . ومن هذا الاصل اشتقت المفردات او الكلمات : Carpathes , Karawanken , Carso , Crau , garrique ، وغير ذلك من الاوضاع اللغوية . ومن هذا الاصل الألسني جاءت الكلمة العربية قلعة ، والتركية كاله

والليتوانية *gala* وكلها تعني في هذه اللغات : القلعة او الحصن . مثل هذه الكلمة وغيرها من المصطلحات اللغوية الاخرى ، مشاع بين بلدان كثيرة ، وكلها دوائر او بقايا لغة تقدمت بكثير اللغة الهندو الاوروبية التي درج استعمالها في هذه الرقعة الجغرافية الممتدة من القوقاس الى جبل طارق فبحر البلطيق . وهنا لا بد لنا من ان نتساءل ما عسى ان تكون هذه الاقوام او الشعوب التي في عهد العصر الحجري الجديد ، او في عهد اسبق واقدم ، تعارفت وتفاعمت فيما بينها بهذه اللغة ، مع العلم ان اسماء الامكنة الجغرافية ومسمياتها تبقى على الالسنه يستعملها الناس ويجرون عليها حتى بعد زوال الحضارات التي مكنت لها في الاستعمال . كذلك نرى مثل هذه المفارقات والمواصفات تظهر في الحضارات التي سبقت الحضارات السلافية في مصر وبلاد ما بين النهرين وبين الحضارات التي ازدهرت فيما بعد حول هارابا وموهنجو - دارو في حوض نهر الهندوس . فالاعتقاد بانها تحدرت من جذع واحد لا يزال منه في جهل مطبق ، ليس بكفر .

وهكذا ، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار قِدَم ظهور الانسان على الارض ، فان الحضارات لم تأخذ بالتنوع والتفرد وبالتالي بالتمركز جنبا الى جنب ، في حيز ضيق الا بصورة تدريجية ، وفي عهد قريب منا جداً . وقد برز هذا التنوع واصبح الطابع المميز لحياة الناس في التاريخ القديم ، رديحاً طويلاً من الزمن . وقد كانت هذه الظاهرة امرأ لازماً . فمنذ ان اخذت فئات من الاقوام البشرية في الاستقرار والتحضر ، راحت كل فئة تتطور في المحيط الذي ارتضته لها مقرأً وفقاً لعوامل زمنية ومكانية ، خضعت لها ، ولؤثرات حسية وخلقية عرفت بها ودرجت عليها . والحق يقال ، ان التفتت الذي ألم بالحضارة الوحداية وتشعبها الى حضارات متعددة ليس إلا النتيجة المنطقية للرقى الذي حققه الانسان ولتطوره الصاعد الذي زاد حياته المادية والعقلية تعقيداً وتشابكاً ، ووفر له اسباب التباين والتغاير والتفرد . قرب برعم لم يربسه له عند ظهوره وبروزه كان سبباً في قيام ساحات من الغابات الظليلة والاحراج الغضة .

ليس لعمري من مدنية قامت وعاشت في قوقعة مطبقة لم تتأثر في كثرة او قلة بما تقدمها من الحضارات التي ازدهرت من قبل . وقد يكون خطر لبعض هذه الحضارات مثل هذا الشعور من الاكتفاء الذاتي . من ذلك مثلاً الحضارة الفرعونية القديمة التي لم تستطع ان تحقق مثل هذه المثالية وان كانت أكثر المدنيات اقتراباً منها . فكل هذه الحضارات دونما استثناء عولت على مصنوعات ومحاصيل جاءت من الخارج . ويعتري المرم الدهشة عندما يرى ، منذ اقدم العصور ، المسافات الطويلة التي كان يقتضيها وصول بعض المواد الاولى . صحيح ان معظم هذه المواد المستوردة كانت خفيفة الحمل والوزن يستعملها الانسان في حليه وزينته لندرتها وغلاء ثمنها . من هذه المواد مثلاً اصداق مقاطعة التورين ، في العصر الحجري القديم الاعلى ، والكهرمان المستورد بعد ذلك بكثير من شواطئ بحر البلطيق ، والحديد الذي اتخذت منه ادوات الصياغة في مصر وبلاد ما بين النهرين . وصناعة البرونز او الشهبان اقتضت كميات وافرة من القصدير جرى شحنها الى بلدان الشرق الادنى واقطاره . فالتبادل التجاري كان سبباً في اقامة اتصالات

مباشرة . والمهم في هذا كله ان هذه المادلات التجارية والاتصالات التي بعثتها وهيأت اسبابها ، تمت واستمرت دون ان تمس ، بشكل محسوس ، اصالة كل هذه الحضارات التي انتظم عقدها واستبطر شأنها . والظاهر هو ان التاجر والبحار في نقلها السلع التجارية ومقايضتها بها ، كانوا اقل اهتماماً بنقل المهارات الفنية والتقنية ، واقل منها ، معاطاةً بالامور الفكرية والروحية . وهناك امثلة مستمدة من الازمنة التالية للتاريخ القديم ، يمكن ان يستدل بها على أنفعتها من ذلك إذ يفقدان بها سبب وجودهما . فالتبادل انما يعني التباين .

الامبراطوريات القديمة ووحدة الحضارة
هل عاد هذا التجزؤ الحضاري الذي ميز التاريخ القديم بالضرر على غير التجار ؟ فان لم يعاود الناس اخبار تلك الوحدة التي زالت من الوجود بعد ان عجزوا عن الاحتفاظ بذكرها فقد يكون راودهم الشعور بان حضارة مشتركة تتحقق تساعد الجميع على العيش معاً بسلام ؟ قليلة جداً هي الاصوات التي عبرت متأخرة عن هذه الامنية ، وهي امنية كان علينا ان ننظر طويلاً ظهور من يعبر عنها بجلاء ووضوح كالاسكندر الكبير في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد . والمحاولة القصيرة الامد التي تمت على يدي الفاتح المقدوني لم يقم من يحاولها من جديد رسمياً الا الامبراطورية الرومانية في القرن الثاني للميلاد التي نسجت على هذا المنوال دون ان تعلن عنه او تفصح به .

فالتاريخ القديم يعج بالامبراطوريات ، كما يفيض باخبارها ومصائرهما وارتفاعهما وهبوطهما الى غير ذلك مما يدخل في صميم التطورات السياسية . وكل من هذه الامبراطوريات التي طلعت عبر التاريخ : من مصرية ، واشورية ، وفارسية ، ومقدونية واخيراً رومانية كان يبرز اللاحق منها السابق باتساع الرقعة وضخامة السلطان ، بحيث يدخل في روع المستقرى ان نقطة الانطلاق اقوى في اللاحق منها في السابق وان الاندفاع كان في كل مرة يقترب اكثر فاكثراً ، من الهدف المشترك الذي وضعه الفاتحون نصب اعينهم ، الا وهو الامبراطورية الشاملة . وكان بهذا الجهد الموصول لتحقيق هذا الهدف السامي تعبير عن نزعة حاش بها قلب الانسانية الا وهو تحقيق وحدة شاملة ليست جغرافية فحسب بل بشرية ايضاً .

وبالفعل ليس شيء من هذا كله . فمهما كانت العوامل المختلفة المتفاعلة دائماً والمتشابكة ، التي ادت الى ظهور هذه السلطنات الشاسعة المتتالية ، فلا ننس في أيٍّ منها الرغبة الصادقة في نشر حضارة الفاتح وفرضها على المغلوب ، اذ ان اهتماماً من هذا النوع لا بد ان يتبلور ويبرز باعمال واجراءات موضوعية لا نجد بالفعل شيئاً منها . فالفاتح او الغازي الذي تم له الفتح ، كان يرى في الحضارة التي ادت به الى النصر المبين خبر الحضارات وامثلها كما رأى فيها سر تفوقه وتعاليه ، يحرص عليها ويصونها من كل عبث وانفعال ويحتفظ لنفسه بالمنافع الجزيلة التي امنتها له . فلم يحاول يوماً ان يصطنع المغلوب على امره او ان يتمثله او يتقرب منه تحت ستار او مظهر من مظاهر التشبع والدعوة . فالفاتح انما يهيم من الفتح الفوز بالاعداء والاسلاب ، ولذا فلم

تهتم الامبراطوريات التي قامت في التاريخ القديم يوماً بامتلاك القلوب والنفوس .

من الطبيعي جداً ان لا تخلو مساكنة الغالب للمغلوب وتعايشها معاً زمناً طويلاً من تفاعلها معاً وانفعالها بمؤثرات وعوامل مشتركة. فبالرغم من تمسك المصريين مثلاً وتشبثهم بعناد بتقاليدهم الموروثة ، في كلا الوضعين او الحالين ، فقد كانت تظهر عليهم معالم هذا التفاعل المتبادل يحملون اثره ظاهراً . غير ان الحصول على نتائج عميقة محسوسة من جراء هذا التعايش الطارىء فقد كان يقتضي له أمد طويلاً من الزمن لم يتوفر لكثير من هذه الامبراطوريات التي كانت تثتاي وتتهار سرعاً . واذا اعوز هذه السلطانات الوقت الكافي الذي يتطلبه اي تطور من هذا النوع كانت لا بد للحكومة المركزية ، والحالة هذه ، ان تحاول بنفسها تحقيق هذا التقارب وتستحث منه الخطى بإدارة حازمة .

الا ان مثل هذه الفكرة لم تخطر يوماً على بال احد قبل الاسكندر . ف مجرد طروئها في ذهنه ومحاولته الصادقة لتحقيقها وتحيزها قولاً وفعلًا ، كل ذلك يضيف على الفاتح المقدوني ميزة خاصة تفرده وتميزه بين كبار الفاتحين . ومن المفيد مع ذلك ان نلاحظ هنا ان هذه الفكرة لم تخطر على بال الفاتح اليوناني في بدء حملته على الفرس بل نشأت عنده إبان الفتح والحملة العسكرية . ولذا جاز لنا ان نعتقد دون ان نشك باخلاصه في ان الفكرة تبذرت له وسيلة من وسائل التغلب على المقاومة العنيدة التي لقيها عند خصمه . الا ان حتى رفاقه وتلمذهم امام صعوبة المطلب ، وموت الفاتح فجأة كل هذا حد من التجربة وانتقص من امكانيات تنفيذها بالزخم المرجى والمدى المرغوب .

وقد قام بين خلفائه ، هنا وهناك ، من عاود الكرة ، اما مدفوعاً اليها كرهاً عنه بقوة الاستمرار ، وبالتالي بخشية ولين ، إما بتوعية اكبر وادراك اوسع وب نشاط اوفر وعلى نسبة اكبر ، ولا شك انهم رأوا في الكرة يعاودونها من جديد وسيلة مثلى لترسيخ ما اقاموه من سلطان سياسي وعسكري فعملوا على تدعيمه بملاط الوحدة الروحية .

وها هي رومة تطل اخيراً علينا فتنشئ امبراطورية تمتد اطرافها من الشرق الى الغرب هي اقوى الامبراطوريات التي عرفها التاريخ القديم واوسعها طراً واطولها مدى ، اوشكت تتحقق من ضمنها وحدة الحضارة . ولكن رومة لم تسع الى هذه الوحدة ، بل فرضتها عليها عوامل عديدة ودوافع متنوعة : ادارية وسياسية ، وعسكرية واقتصادية ، حتى ودينية . فالمسؤولون فيها لم يعتقدوا الفكرة ، ولم يماشوها الا متأخرين جداً ، بعد ان اتضح لهم فشل فكرة الامبراطورية . ثم من الجائز ايضاً الافتراض انهم لم يتذوقوا النتائج التي ادت اليها هذه الجهود الفورية أولاً ثم المنهجية . الا انه لا يجوز الانتقاص من اهميتها والخط من شأنها . ولكن ما عسى ان تكون افضت اليه هذه الجهود وهذه النتائج لولم تستعجل غزوات البرابرة ، مع عوامل اخرى تضافرت وتفاعلت بها ، انهيار مثل هذه الوحدة البشرية الواسعة التي اوشكت ان تتم ؟

لتاريخ الحضارات التي ظهرت في العصور القديمة طابع مؤثر . فقد تفتح من المدينيات المسكونية البدائية حضارات مختلفة اخذت بالتطور والتكامل الى ان ازدهرت ورالت الواحدة تلو الاخرى . وقد اسهمت كل منها في نماء التراث البشري المشترك . ومن جهة اخرى فالحضارات الكبرى التي نشأت واستشرى امرها ضمت في كينونتها ممالك ودولاً تعايشت معاً وتفاعلت على فترات من تطورها . وهكذا بدا العالم القديم وكأن قوة خفية تحركه وتدفعه من حيث لا يدري نحو وحدة تتجدد دهرأ بعد دهر . فالحضارات تتعاقب وتتهوى بعد ان تحاول كل منها ان ترفع درجة اعلى من سابقتها ، صخرة الوحدة التي آل اليها امرها فترة من الدهر . ولا تلبث الصخرة ان تهوي الى الارض محطمة كل شيء في انهارها المدوي .

